المحاضرة الثامنة والثلاثون

ولا يشير التنظيم على بنية معينة وإنما يشير إلى ميل عام لتنظيم كل من العمليات الفيزيقية والنفسية في نظم متماسكة وهذا الميل موجود سواء على المستوى البيولوجي أو على المستوى النفسي ففي المستوى البيولوجي على سبيل المثال يوجد لدى السمكة عدد من الأبنية التي تمكنها من أن تعيش تحت الماء مثل الخياشيم والجهاز الدوري الخاص وميكانزمات الحرارة كل هذه الأبنية تتفاعل مع بعضها وتنتظم في نظام كفء وهذا التناسق نتيجة للميل إلى التنظيم وهنا يجب أن نؤكد أن التنظيم لا يشير إلى الخياشيم والجهاز الدوري بشكل خاص وإنما يشير إلى الميل الملاحظ في كل الكائنات الحية نحو تكامل أبنيتها في نظام مركب هذا الميل للتنظيم موجود على المستوى النفسي أيضا فالفرد في تعامله مع العالم الخارجي يميل إلى أن تتكامل أبنيته النفسية في نظم متماسكة فمثلا يكون لدى الوليد الصغير جدا القدرة على النظر للأشياء أو القدرة على القبض عليها كل قدرة منها مستقلة أو منفصلة عن الأخرى ولكن بعد فترة من النمو ينظم الطفل هذه الأبنية المنفصلة في بنية ذات مستوى أعلى تمكنه من أن يقبض على شيء معين وينظر إليه في نفس الوقت فالتنظيم إذن هو ميل مشترك في كل أشكال الحياة لأن تتكامل الأبنية الفيزيقية والنفسية مع بعضها مكونة نظما أو أبنية ذات مستوى أعلى .
والتنظيم وجهة النظر البيولوجية لا ينفصل عن التكيف فهما عمليتان متكاملتان فإذا كان التكيف يتعلق بعلاقات الكائن الحي بالبيئة الخارجية ويهدف إلى تحقيق التوازن في هذه العلاقات فإن التنظيم يختص بعلاقات الأعضاء والأبنية الداخلية ببعضها بحيث تكون كلا متزنا كذلك . وفي نفش الصورة نجدها في الذكاء سواء في صورته العملية المحسوسة أو في صورته المجردة إذ يوجد هذا التلازم بين التنظيم والتكيف فمن ناحية العلاقات بين الأجزاء والتي تحدد التنظيم من المعروف تماما أن كل عملية عقلية تكون دائما مرتبطة بجميع العمليات الأخرى وأن عناصرها ذاتها تخضع لنفس قوانين التنظيم وعلى ذلك فالعلاقات القائمة بين التنظيم والتكيف على المستوى العقلي هي ذاتها الموجودة على المستوى البيولوجي فالفئات العقلية الرئيسية التي يستخدمها الذكاء للتكيف مع العالم الخارجي مثل المكان والزمان والنسبة والعدد وغيرها يقابل كل منها جانبا من الواقع بنفس الصورة التي يرتبط بها كل عضو من أعضاء الجسم بخاصية معينة للبيئة ولكنها بالإضافة إلى علاقتها بالعالم الخارجي ترتبط مع بعضها وتتداخل مكونة تنظيما معينا بحيث يستحيل أن نفصلها عن بعضها منطقيا إن اتساق الفكر مع الأشياء واتساق الفكر مع ذاته يعبر عن هذا الثابت الوظيفي المزدوج للتكيف والتنظيم وهذان الجانبان للفكر لا ينفصلان عن بعضهما : فعن طريق التكيف مع الأشياء ينظم الفكر ذاته وعن طريق تنظيم ذاته يعيد تركيب الأشياء.

الأبنية العقلية والصور الإجمالية:ـ

وإذا كان التنظيم والتكيف من الثوابت الوظيفية التي تحكم تفاعل الفرد مع البيئة طوال حياته فإن الأبنية التراكيب العقلية والصور الإجمالية تتغير من مرحلة لأخرى فماذا يعني بياجية بهذه التغيرات التي تختلف باختلاف مرحلة النمو العقلي للفرد؟
يشير لفظ أبنية إلى تمط منظم ترتبط أجزاؤه فيما بينها بعلاقات مكونة كلا واحدا والطريقة التي تتجمع بها الجزيئات مع بعضها تحدد طبيعة البنية فثلاث نقاط حينما توضع في شكل معين تشكل مثلثا وإذا وضعت بطريقة أخرى فإنها قد تعطي خطا مستقيما . وتختلف الأبنية و التراكيب فيما بينها من حيث جمودها أو حركتها . فالحائط المكون من قوالب الطوب يمثل بنية استاتيكية جامدة ولكن يمكن أن توجد بنية ثابتة ولكنها تتضمن في داخلها حركة مستمرة تخضع لقوانين معينة . فنظام تغذية المنزل بالمياه تمثل بنية ثابتة ولكنها تمثل مع ذلك نظاما ديناميكيا . فأي نقص في المياه في مكان يعوض مباشرة من مكان آخر عن طريق حركة المياه الدائمة . هذه الحركة لا

تحدث كيفما اتفق ولكنها تخضع لقاعدة الأواني المستطرقة . فعلى الرغم من أن نظام المياه ثابت بأنابيبه وخزاناته ...الخ. إلا أن هناك حركة مستمرة تحدث داخله.
والأبنية العقلية عبارة عن تنظيمات تظهر خلال أداء العقل لوظائفه . إنها وسيلة بين الثوابت الوظيفية والسلوك الذي يقوم به الفرد وهي نظم ديناميكية تحددها قواعد معينة وتشكل معها نظاما متوازنا وتتغير هذه الأبنية العقلية أثناء النمو الارتقائي للفرد ومن ثم فإن شكل التوازن تختلف من مرحلة على أخرى.
ويدخل في تكوين البنية العقلية أو المعرفية ما يسميه بياجيه بالصور الإجمالية أو الخطط هو مفهوم شائع في كتابات بياجيه على الرغم من صعوبة تحديده ومع ذلك يمكن القول بأن الصورة الإجمالية في صورتها البسيطة ما هي إلا استجابة ثابتة لمثير معين على أنها ليست استجابة ذرية بسيطة وإنما هي استجابة معقدة تتضمن كلا من العمليات الحسية الحركية والعمليات العقلية المعرفية وترجع الصور الإجمالية الحسية الحركية في أصولها إلى الأفعال المنعكسة التي يولد بها الطفل مثل منعكس المص أو القبض أو الصياح والخاصية الأساسية لهذه المنعكسات هي التكرار وهي تستلزم استشارة بيئية لكي تحدث بمعنى أنه إذا توافرت شروط بيئية معينة فإن استجاب النص تتكرر مع أشياء مختلفة ومتعددة فمنذ الأسبوعين الأولين من حياة الطفل نجده يمص أصابعه والأصابع التي تمتد إلى وسادته وغطائه وفراش سريره ... الخ , وبالتالي يتم تمثيل هذه الأشياء في نشاط منعكس المص(٧٤:٣٤) وبمعنى أن هذه الصورة الإجمالية عن طريق التكرار تتسع لتشمل أشياء متعددة أن يتم تعميمها ولكن مع اختلاف خصائص الأشياء يحدث شيء عكسي وهو التمييز فنتيجة لاختلاف خصائص الأشياء تستجيب الصورة الإجمالية بطرق مختلفة للأشياء التي يتم تمثيلها فيها وعلى ذلك فإن النشاط الرئيسي للصورة الإجمالية هو:

١ـ التكرار ثم
٢ـ التعميم.
٣ـ التمييز.